وعلى هذا نرى انهُ يجب العمل بمشورة الاطباء والاعتماد على احكامهم فاذا قالوا ان المرض الفلاني يعدي ولا بد من إخبارهم عن المريض بهِ وجب على كل احد ان يصدق قولهم ويطيع امرهم والاَّ فلومهُ على نفسهِ . ولا تلام الحكومة اذا اجبرت رعاياها على العمل بالوسائط الَّتي تمنع انتشار العدوى . وكما انهُ لا يجوز لاحد ان يطرح السم في ترعة يشرب منها الناس لا يجوز لهُ ايضاً ان يلقي فيها مواد تنشر بينهم الوباء

مفاخر الشرق ومفاخر الغرب

[ترجمة رسالة من سلطان الصين الى الملك جورج الثالث ملك الانكليز بعث بها اليهِ سنة ١٧٩٣ جواباً على خطاب ارسلهُ ملك الانكليز مع سفيرهِ لورد ماكرتني]

" صدرت ارادة سلطانيَّة الى ملك الانكليز بما يأتي

ايها الملك البعيد وراء البحار الكثيرة لقد اتجهَ قلبك تجاه العمران وبعثتَ الينا رُسُلاً يحملون خطابك الدال على خضوعك فقطعوا البحار ووصلوا الى بلاطنا ورفعوا صلواتهم الحارة لاجل نجاح سلطنتنا وقدموا لنا جزيتك الدالة على اخلاصك القلبي . وقد فضضنا خطابك وقرأناهُ فوجدنا عبارتهُ تدل على طاعتك لنا واحترامك لمقامنا ولذلك امرنا بقبولهِ واستحسانهِ . اما رئيس الرسُل واعوانهُ الذين حملوا خطابك وجزيتك فقد نظرنا الى المشاق التي كابدوها في القيام بهذه السفارة البعيدة الثقة فتنازلنا وامرنا وزراءنا ان يكنوهم من نعمة المثول بين ايدينا وانعمنا عليهم بوليمة ونِعَمٍ متوالية اظهاراً لمحبتنا وحنوّنا . اما الضبَّاط والخدم الذين في السفينة وعددهم ستّة او اكثر فقد عادوا بها الى تشوسان قبل ان يبلغوا العاصمة وقد احسنَّا اليهم ايضاً لكي يكون لهم نصيب وافر من لطفنا المجيد ويكونوا كلهم مشمولين بكرمنا

وقد توسَّلتَ الينا في خطابك لكي نسمح لك بارسال رجل من ابناء جلدتك يقيم في بلاطنا السموي[1] ويدبّر الامور التجاريَّة الخاصة بمملكتك . الاَّ ان هذا مناقض لسياسة البلاط السموي ولا يمكن السماح بهِ بوجهٍ من الوجوه . وقد رغب البعض من الامم الاوربيَّة في المجيء الى البلاط السموي والانتظام في خدمتهِ فأُذن لهم بالمجيء الى عاصمتنا ولكنهم حالما دخلوها خضعوا لكل قوانين البلاط السموي ونزلوا في الدار[2] ولم يسمح لهم بالعودة الى بلادهم

(١) يراد بالبلاط السموي بلاد الصين وهو لقب تلقب بهِ نفسها في خطاب الاجانب وقد استعمله سلطان الصين هنا بمعنى بلاد الصين وبمعنى بلاط الملك .

(٢) يراد بالدار منازل المرسلين الاوربيين وتسمى دار رب السماء

هٰذا هو قانون البلاط السموي ويجب ان تكون عارفًا به ايها الملك . والآن تطلب ان ترسل رجلاً من قومك ليقيم في عاصمتنا وبما ان هٰذا الرجل لا يضطرُّ ان يبقى في بلادنا دائمًا مثل سائر الاوربيين الذين انتظموا في خدمتنا فيستحيل عليهِ ان يجول في البلاد ويرسل الاخبار بالاضطراد ولذلك يكون وجودهُ عبثًا . ثم ان البلاد الخاضعة للبلاط السموي واسعة الاطراف جدًّا واذا جاء رسول منها إلى عاصمتنا فديوان الترجمة يهتمُّ بامرهِ وتقيَّد حركاتهُ كلها على موجب قوانين مدققة . ولم يسبق اننا سمحنا لرسول ان يفعل كما يشاء فاذا كانت بلادك ترسل رجلاً الى عاصمتنا ليقيم فيها فلغتهُ لا تُفهَم ولبسهُ يكون غريبًا وليس عندنا مكان مناسب لذلك ولا يريد بلاطنا ان يضطرهُ إلى تغيير زيهِ ان لم يغيرهُ هو من نفسهِ لاننا لا نمنع الحريَّة الشخصيَّة . ثم ان بلدان اوربا كثيرة ومملكتك ليست الوحيدة فيها فاذا توسَّلت كلها الينا كما توسلت انت لكي نأذن لكل مملكة منها بارسال رجل يقيم في عاصمتنا فكيف يمكننا ان نسمح بذلك لكل واحدة منها — هذا ضرب المحال حتمًا . وهل يعقل اننا نغير عوائد بلاطنا القديمة لكي نجيب طلبك انت وحدك . وان قيل ان غرضك من ارسالهِ ان يراقب احوال التجارة أُجيبَ انهُ مضى على قومك زمن طويل يتَّجرون في مكاو من بلاد الصين وكانوا دائمًا يعاملون احسن معاملة مثال ذلك ان الوفدين اللذين ارسلتهما البرتغال وايطاليا وصلا إلى بلاطنا وطلبا مطالب تتعلق بمراقبة التجارة ورأى بلاطنا السموي اخلاصهما فاكرم مثواهما وكلما حدث حادث يتعلق بتجارة البلادين نالها ما يرضيهما . ولا بدَّ من انهُ بلغ ذلك مملكتك فلماذا تلجُّ الممالك الاجنبيَّة بارسال اناس يقيمون في عاصمتنا وتطلب مطالب لم يسبق لها مثيل ولا يمكن ان تجاب . ثم ان الرجل الذي يقيم في العاصمة يكون بعيدًا عن مركز التجارة في مكاو مسافة ثلاثة آلاف ميل فكيف يتسنَّى لهُ ان يراقب التجارة مراقبة نافعة وان قلت انك تريد ان ترسلهُ احترامًا للبلاط السموي وترغب في ان يرى بعينيهِ اساليب العمران أُجيبَ ان نظام البلاط السموي صالح له ومخالف لما هو متبع في مملكتك . وهب ان الرجل استطاع ان يتعلم اساليبنا فلا بدَّ من ان يكون في مملكتك اساليب خاصة بها فلا تتركها وتتبع اساليبنا . ولذلك فاذا فرضنا ان الرجل استطاع ان يتعلم اساليبنا فهو لا يستطيع ان يستعملها . وقد وثق البلاط السموي بين كل الامم التي ضمن البحار الاربعة وليس لهُ من غرض الاَّ حسن السياسة ولا قيمة عندهُ للتحف النادرة الغالية الثمن . اما الاشياء التي بعثتَ بها الينا الآن ايها الملك فقد نظرنا الى اخلاص نيتك وبُعد الشقة التي أُرسلت فيها ولذلك امرنا رجالنا الذين يناط بهم امر التحف ان يقبلوها . ومن المقرر ان سلطة البلاط السموي نافذة في كل

الاقطار و يأتينا وفود الممالك العديدة دائماً لتقديم فروض الطاعة . والتحف الثمينة النادرة المثال تقطع البحار دواماً وتتراكم عندنا فلا شيء ألاَّ وعندنا منهُ كما رأى رسولك بعينهِ . ومع ذلك ترانا لا نهتمُّ بهذه الطفائف ولا ننتظر ان تُرسِل الينا شيئاً من مصنوعات بلادك بعد الآن . فما سألتهُ وهو ان ترسل رجلاً يقيم في عاصمتنا مناقض لسياسة البلاط السموي وخالٍ من كل نفع لمملكتك

فقد ابلغناك ارادتنا وامرنا رجالك ان يعودوا حالاً الى بلادهم ويحسن بك ايها الملك ان تبذل جهدك لتفهم مقاصدنا السلطانيَّة وتنضي عزيمتك لتبرهن لنا على حسن ولائك واجتهد دائماً ان تكون خاضعاً لنا محترماً لمقامنا لكي يكون لمملكتك نصيبها من نِعَم السلام"

وقد اطلعنا على رسائل اخرى من هٰذا القبيل بعث بها سلطان الصين الى ملك الانكليز منذ مئة عام وهي على هٰذا النسق كأنها صادرة من رئيس كبير الى مرؤوس صغير وفيها من ضروب الاهانة والتحقير ما لا يكتبهُ سيد الى عبدهِ واذا ذكر فيها تجار الانكليز سموا برابرة وسميت بلادهم بلاد البرابرة كقولهِ في رسالة اخرى

" لقد تاقت نفسك ايها الملك من بلادك البعيدة الى اسباب الحضارة ووجَّهت قلبك وهمَّك نحو طرق الفلاح فارسلت الينا رسلك ومعهم رسالة وجيزة لقطعوا البحار و يتوسلوا بطلب سلامتنا . فرأينا اخلاصك في طاعتك لنا وامرنا و زراءنا ان يأتوا برسالك ليتشرَّفوا بالمثول بين ايدينا وانعمنا عليهم بوليمة وبهبات وافرة . وقد صدرت ارادتنا السنيَّة بارسال بعض الهدايا اليك من الحرير المشجَّر والتحف اظهاراً لتعطفاتنا

وبالامس ذكر رسلك تجارة مملكتك وتوسلوا الى وزرائنا لكي يعرضوا هٰذا الامر علينا . وهو يتعرَّض لبعض السنن الثابتة فلا يمكننا ان نوافق عليهِ . وحتى الآن كانت سفن البرابرة من ممالك اوروبا المختلفة ومملكتك في جملتها تأتي بما فيها الى مكاو ومضى على ذلك زمن طويل فهو ليس من امور الامس . اما البلاط السموي فغنيٌّ بكل قنية وما من شيء ألاَّ وفيهِ منهُ فليس بهِ حاجة الى بضائع البرابرة . ولكن بما ان الشاي والحرير والخزف الصيني التي هي من حاصلات البلاط السموي بضائع لا بد منها للمالك الاوريَّة ولمملكتك في جملتها فتنازلاً منا وشفقةً انشأنا مخازن في مكاو لكي تأخذ منها تلك الممالك ما تحتاج اليهِ فتتمتع كلها بوفرة غنانا . ولكن رسلك لم يكتفوا بذلك بل طلبوا مطالب اخرى تزيد عليهِ على اسلوب مناقض لاصول انعام البلاط السموي على كل البعيدين عنهُ واعتنائهِ الابوي بالبرابرة المختلفي الاجناس . ثم ان البلاط السموي يتسلط على كل الممالك و ينعم على الجميع على حدٍّ سوى

فالذين يتجرون في كنتون ليسوا من بلاد الانكليز فقط فان اتوا كلهم واقلقونا بمطالبهم مثلما اقلقتنا فهل يمكن ان نعدل عن مسلكنا القويم ونجيبهم إلى مطالبهم. وبما اننا نعلم ان مملكتك في زاوية خفيَّة في القفر البعيد يفصلها عنا بحار كثيرة وانت بالطبع غير عارف رسوم البلاط السموي فلذلك امرنا ورزاءنا ان يوضحوا ذلك كلهُ لرسلك ويثقفوا عقولهم ثم يصرفوهم الى بلادهم . ولكننا خفنا من ان رسلك لا يوضحون هذه الامور لك جيدًا فاستعملنا عمَّا يطلبون وارسلنا اليك الاوامر التالية لتعليمك عساك تفهم معنانا " . ويتلو ذلك ستة اوامر مشروحة شرحًا مسهبًا يبين فيها انهُ لا يمكن اجابة مطالبهِ وهي مختتمة بالكلام الآتي

" فلا تقل انا لم نتذرك فخف واخضع لاوامرنا بلا امهال "

ولم يكن الانكليز كما يوصفون بهذه الرسالة بل كان لهم المقام الاول بين دول اوربا كما لهم الآن. الاَّ انهم لم يُعرِضوا عن سلطان الصين لانهُ جهل قدرهم بل بعثوا اليهِ وفدًا بعد وفدٍ ورسولاً بعد رسول ثم اروهُ مقدرتهم بقنابل المدافع سنة ١٨٤٠ ودخلوا عاصمتهُ عنوةً فاضطروهُ ان يسلمهم جزيرة هونغ كونغ ويفتح موانيهُ لتجارتهم ويخاطب ملكهم كما يخاطب المثيلُ مثيلهُ . وحاربوهُ مرة اخرى سنة ١٨٥٨ واضطروهُ ان يقبل سفراءهم في عاصمتهِ ويعاملهم معاملة نوَّاب ملك مساوٍ لهُ مقامًا وان يسمح للاوربيين ان يسافروا في بلادهِ كيفما شاءوا. وحاول ان لا يمضي شروط الصلح فحاربوهُ مرة ثالثة وفتحوا عاصمتهُ واضطروهُ إلى امضائها

وتاريخ الاوربيين مع امم المشرق يكاد يكون كلهُ على هذا النسق ونتيجتهُ واحدة وهي ان الاوربيين يعتمدون على العلم والعمل فيزيدون قوةً وعظمةً وغنىً ونحن نعتمد على الدعوى والاوهام فنزيد ضعفًا وحطةً وفقرًا . اما اسباب ذلك فنترك البحث فيها الى القراء الكرام

زوبعة سنت لويس

سنت لويس مدينة في وسط النصف الشرقي من الولايات الاميركيَّة المتحدة وهي اعظم مدينة تجاريَّة في وادي نهر المسيسبي . كانت في اول امرها مرفأً على ذلك النهر العظيم انشأهُ رجل فرنسوي سنة ١٧٦٤ وسماهُ سنت لويس باسم لويس التاسع ملك فرنسا ونشأت هناك قرية صغيرة ضُمَّت الى اميركا سنة ١٨٠٣ و بلغ عدد سكانها ٧٩٥ نفسًا سنة ١٧٩٩ و١٤٠٠ نفس سنة ١٨٢٠ ثم زاد نموها سريعًا كغيرها من المدن الاميركيَّة فبلغ عدد اهاليها ١٦٤٦٩